من تراب الطريق (٥٧٤)

غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (*) (١)

تنسى أجيالنا ، بعدم الانتباه والاعتياد تنسى أننا الذين أقمنا ونقيم ما معنا من معرفة وعلم وفن ودين وأخلاق وحضارة .. وهذه قضية صحيحة ؛ يمكن أن يتبناها البشر فى أى زمن مستقبل أو ماض .. لأن بدايات هذه الأمور تخالف نهاياتها التى معنا تخالفها فى أنها بدايات فردية صرف ، أما نهاياتها فجماعية مشتركة عامة بناها وشكلها ما لا حصر له من العقول والنفوس والأقوال والأفعال والأساليب والطرق والأعراف والظروف والأحوال والأمكنة والأزمنة . وهذا فى الواقع الغالب هو سبب وصولها إلينا واعتناقنا لها ، ولكننا لا نحب ولا نرضى به ، بل نرد كل ما معنا الآن من ذلك نرده إلى بدايته الأولى الفردية الروحانية المتميزة بفرديتها وروحانيتها ، ونجتهد فى إقناع أنفسنا بوثاقة انتمائنا لتلك البدايات بتمجيدنا لها والإكثار من هذا التمجيد فى كل فرصة تتاح .. مع التسليم بأنها نماذج خاصة نادرة لا يمكن أن نحاكيها .. وذلك التمجيد مفيد فى الإبقاء على الشعور بالانتماء إلى الدين ، والارتباط لحدٍّ ما بأهله.. ولكن ذلك قليل الجدوى فى تنمية الإخلاص والأمانة والاستقامة والالتزام بالفضائل والأخلاق بين الأفراد والجماعات ، وليس له مردود يذكر فى هذه الأمور . هذا وشيوع هذا التمجيد يُحْمَل عادةً على أنه يخفف بطريقة ما من عواقب الخطايا والأوزار التى تُرتكب . وليس من الهين إقناع عامة الناس والكثير من خاصتهم بحساب

(*) المال ٢٠/ ٣/ ٢٠١٢

وتصور الاختلافات والفروق الضخمة التى بين المجتمعات الحالية ، وبين تلك المجتمعات الصغيرة البسيطة التى عاشت من قرون فى بدايات العقائد على الرعى أو الزراعة القديمة ، وليس من الهين إقناعهم باستحالة رد حياتهم الحالية إلى ذلك الماضى البعيد ، الذى لا نعرف عنه إلاّ مقولات متفرقة قد لا تتفق مدلولاتها عند الماضين مع مدلولاتها عندنا تماما .

وهكذا يستبقى البشر بقية من خيوط ماضيهم رغم وهنها وعدم قدرتها على مسايرة حاضرهم ومستقبلهم .. وكلما زادت الأيام فى إظهار ضعفها زادوا هم فى الاحتفاء بها والحرص على إظهار الاعتزاز بها ، برغم ضيقهم الذى لا يخفونه بامتثالها واعتيادهم على عدم الإذعان لها !

وشتان ما بين قوة وحرارة المعانى والمشاعر المعاصرة لبدايات الديانات والحضارات ؛ وبين ضعفها وفتورها الآن .. لقد كانت إذ ذاك جديدة يافعة .. ديانة أفراد وأبطال .. فيها إعجاز وإقدام غير مألوفين .. ولم تتعرض بعد لخمول الكثرة وجفافها ومحنها ، ولا لطموح القلة وأطماعها وذكائها وبراعتها ، ولا أتيح المجال لدفع الناس إلى الاشتغال بالإشكالات والخلافات والمذاهب والنظر والجدل والمحسوس وغير المحسوس والوجود والعدم والمطلق والنسبى ثم بالواقع وغير الواقع والطبيعة وما وراء الطبيعة والوضعى والبشرية والمثالية . وبمضى الزمن ، ووهن المعتقدات ، فقدت الألفاظ والقواعد والسلوك والصواب والحق فقدت معناها الواحد المتفق عليه بين المتبع وبين أتباعه ، وبات الدين والنظام دين ونظام لجماعة واسعة يكفيها للسير فى حياتها اتفاق الأغلبية على الموافقة أو الرفض أو الرجوع عن الموافقة إلى الرفض أو عن الرفض إلى الموافقة .. لم يعد يكفى أن يقول قائل مهما كان من العقل والعلم والحكمة والأمانة إن هذا هو الدين أو النظام

أو الشرع أو الحق ، بل لا بد أن تقول ذلك أغلبية الناس المتعارف عليها فى الجماعة ، أو أن يكون قائلها لديه من القوة المادية ما يستغنى به عن استرضاء الأغلبية لأن لديه القوة التى تسند كلمته وتحمل الجميع على الخوف من عصيانها . وما نراه الآن فى جماعة أو أكثر من الجماعات الكبيرة من تسنم فئة معينة من رجال الدين لمقاعد الحكم والحكومة ليس أصله أو مصدره إجماع الجماعة على العودة للدين كما بدأ ، وإنما أصله ومصدره نجاح قلة من رجال الدين فى الحصول على تأييد من أغلبية الشعب مكنتهم من الحكم والحكومة فى الظروف غير العادية التى تم فيها ذلك .

من تراب الطريق (٥٧٥)

غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (*) (٢)

يبدو أن من نواميس الكون ، أن كل مركب ينحل ويذوب فيما حوله مما هو أبسط منه فى أمد ما ، وأن هذا يصدق على الماديات والمعنويات والأحياء وغير الأحياء ، وعلى هذه الأرض وعلى غيرها .. كما أن فردية الأفراد من الكائنات بخصائصها ، سواء المشتركة وغير المشتركة ، تتآكل وتذوب وتنحل بين أمثالها وفى محيطها .. ونحن كأفراد نخضع لتلك النواميس .. والفروض التى نفترضها أيا كانت وكانت قيمتها أو منزلتها أو مكانتها أو سلطانها تذوب وتنحل بعد أن تتآكل ويتوزع منها بإرادتنا وبغير إرادتنا بعض ما جمعت إنسانيتنا فيه أو ما اجتهدنا أو اكتسبنا أو اقترفنا أو بنينا أو أنجبنا أو تعلمنا أو فكرنا أو رأينا تتوزع فى الجماعة توزيعًا معظمه لا إرادى وغير قابل للتعقيب وغير مضمون السلامة والصحة ، نظرًا لسعة المحيط مع بساطته النسبية التى لا تفارقه .

فغربتنا ليست موجودة لتبقى دائما بعد أن نفارق الحياة بالمعنى البشرى .. وإنما الذى يبقى هو تذكر بعض الآخرين من الأحياء لها ، أو تذكر الجماعة لاسمها ولشىء مما يُعزى إليها حقا أو غير حق .. وهذا أيضًا عرضة للنسيان والزوال مع الزمن واختلاف الأجيال والأحوال .

وقد تحفظ الكتب والمأثورات والأعمال العلمية والإنسانية والأدبية والدينية والعمرانية تحفظ معالم وبقايا من الماضين الغاربين يجد فيها الأحياء

(*) المال ٢١/ ٣/ ٢٠١٢

الحاليون ما يثير أو يلذ أو يستعاد مع الإشادة به .. وهذا فى حقيقته من أعمال الأحياء الحاليين الذين اشتغلوا به والتفتوا إليه ، تناولوا به أثراً لقديم ماض كان ولم يعد له وجود ، ولا يمكن أن تبعث حياة صاحبه لا جزئيا ولا كلياً ، وإنما تستثار بذكراه والحديث عنه وتمجيد ما قاله أو فعله ليدخل فى حياة الأحياء ولكن كأثر للغابرين .. وهكذا يسقط من وعى الباقين وذاكرتهم آلاف وملايين الأفعال والتصورات التى امتلأت بها حياة الأفراد الماضين والغابرين ، ولم يتبق لنا منهاإلا أقل القليل بأمل غامض فى إفادة الأحياء.. وقد انتفع البشر بالفعل مع سعة تلك العشوائية وذلك الغموض والشطط والغلط انتفعوا بما انتقل إليهم فى الوصول إلى الترقى أو التطور الذى بلغوه الآن .. هذا الترقى الذى جاوز كل تصور وحاز فى البلاد المتقدمة منذ الحرب العالمية الثانية ثقة تكاد تكون تامة من دوائر الحكم والمال والأعمال ، كما قفزت على يديه التكنولوجيا الحديثة قفزات مذهلة لم تخطر من قبل على بال ، وأشرفت البشرية جمعاء بسببه على أبواب عالم هائل لا حدود لإمكاناته المبنية على المعارف الوضعية وتطبيقاتها . وقد اتسعت من جراء ذلك المسافة أو الهوة التى لا آخر ولا قرار لها بين خارج الآدمى وداخله ، وبين ضخامة وقوة وإعجاز ما بين يديه وحوله ، وبين شعوره بضآلته وحاجته وضرورة اعتماده على غيره كفرد لا حول له ولا طول . هذا الشعور العميق الغائر الأبكم بالتحطيم الداخلى هو مشكلتنا جميعًا وسيظل مشكلتنا إلى أن نعثر لها على حل .

ونحن اليوم نتحرك ونفكر ونعمل ونلهو ونخاف ونطمع ثم نموت ناظرين أثناء ذلك وطول الوقت إلى خارجنا كالمنوم أو كالنائم الذى يمشى وينتقل ويأخذ ويعطى خلال تنويمه أو نومه بلا إرادة حرة ولا اختيار

حقيقى وبلا ثقة فى وجود شىء ثمين عظيم فينا يدفعنا إلى إثباته للملأ من حولنا ، ويعطى لوجود الفرد منا قيمة لا يعدلها شىء آخر .. إذ لسنا نملاً أو نحلاً ، ولسنا سربًا ولا قطيعا . لا يوجد الآن بيننا عبيد ولا يوجد بيننا سادة فى داخلهم وداخلنا .. والفارق بيننا وبين العبيد فى عصور الاستعباد ، أننا دون أن يشعر منا أحد قد فقدنا تمامًا إحساسنا بالسيادة على مصائرنا .. هذا الإحساس الذى كان يميز فى تلك العصور السادة عن العبيد .. وهو ضرب من التألّه والمغالاة فى قيمة الذات فى مواجهة الوجود والكون لم يعد له اليوم نظير .. إذ كبرت العقول وصغرت النفوس إلى حد لم يسبق له مثيل .. ربما لاختلال التوازن اختلالاً شديدًا بين عمق داخلنا وطغيان خارجنا !!

وخارجنا الذى يعيش فيه عالمنا الآن وإلى مستقبل غير قصير بناءٌ ضخم جدًا غير متكامل ولا متساند .. فيه عشوائية واضحة برغم علومه وفنونه الهائلة القيمة والأثر .. غير مترابط بنواميس كونية ولا تربطه روابط عقلية متينة سائدة بين أغلبية البشر ، ولا يجمعه إيمان به من عامة الآدميين سطحى أو عميق .. وهذا فى ذاته مقلق لكل من يفطن إليه من خلال الحركة والصخب والضجيج والهرج والمرج والتهريج الذى يكاد يكون ملازمًا لحياة الآدميين اليومية .

من تراب الطريق (٥٧٦)

غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (*) (٣)

كيف يتماسك هذا البناء الضخم الذى يعيش فيه عالمنا ، بحيث يشعر أغلب البشر بعظمته ومبناه ، ويستعيدون ثقتهم فى أنفسهم داخله ، وينطلقون بقدر من الأمان والأمل والحماس إلى إتمام المسيرة الجديدة الممعنة فى التقدم والشمول التى خطوا بالفعل خطواتهم الأولى فيها ؟ هذا السؤال البالغ الخطر مطروح علينا جميعًا فى كل لحظة ومنذ أمد ، ونكاد لا نلتفت بتاتًا إليه .. لأننا نحيا فيما يشبه غيبوبة عامة شاملة. لا بد أن تشملنا لسنوات قادمة نتيجة ما نحن فيه من سنوات .. إذ نواجه مفاجآت وانهيارات وأزمات واندفاعات وإفلاس مبادئ ومصدقات تقاسمناها واختلفنا عليها .. ثم ها نحن نتقاسم خيباتها وخسائرها فى أنفسنا وأولادنا ومساعينا وأحوالنا ونظمنا ومستقبلنا . وفى هذا الخضم العكر الثائر الغائر لا يكاد الآدمى العادى يعثر على عقله الذى تاه منه .. فهو يعيش يومه فقط إن استطاع ، ولا يجد ما يدعوه لأن يستجمع قواه ليتطلع إلى غده .

صار بيننا وبين آبائنا خط تعتيم واسع مروع .. يفصل أو يكاد بين عالمين بشريين مختلفين فى كل شىء .. فى القامة واللغة والحركات والمشارب والعادات والأمزجة والأذواق والأطعمة والمساكن والمدن والقرى والمقابر والمعابد ووسائل النقل والاتصال والطرق وأوقات الراحة وأنواع الجد واللهو ومعالم الاستقامة ومعنى القرابة والصداقة والمحبة ، وكيفية الفهم

(*) المال ٢٢/ ٣/ ٢٠١٢

والتفكير ، وترتيب القيم المعترف بها وغير المعترف ، وقياس السرعة والبطء والقرب والبعد وحساب الزمن والنجاح والفشل والتمييز بين الجائز والممنوع وبين الحلال والحرام .. وقبل ذلك وفوقه عددنا الهائل المخيف الذى لم يسبق له مثيل على هذه الأرض !

فعالمنا هذا الجديد جدة غزيرة ؛ الذى انفصل عن عالم آبائه انفصالا يكاد أن يكون تاماً ، لم يؤهل بعد فيما يبدو بسبب ما فيه من سيولة شديدة وقلة استقرار لم يؤهل لأن يفكر فى التخطيط والتبصر للمستقبل الذى ينتظره بما معه من معارف وتقنيات غزيرة واعدة فتحت أمامه فرص الامتزاج بالكون الواسع العظيم ، والاجتهاد فى انتقاء المبادئ والوسائل لإحكام اتصال حاضره بمستقبله المأمول .. وربما احتاج هذا إلى سنين يعلم الله وحده ، ما الذى قد يحدثه فيها القلق وعدم التماسك والانتهازية والرعونة .. وهذه لا نزعم أنها نوازل طارئة أو غريبة أو نادرة فى دنيا الآدميين لم يعرفها ماضيهم ، ولكنها تؤذيهم كما تؤذيهم الأمراض البدينة والأوبئة ، وهى مع ذلك لا تجتثهم ولا تقضى عليهم .. ويبدو أنهم مازالوا على قدر من الحصانة من الانقراض !

لم يعد الآدمى العادى يطمئن إلى خبراته وخبرات أمثاله ؛ أو يثق فى أنها محك الصدق والواقع لقراراته واجتهاده وآرائه وأفكاره كما كان يفعل آباؤه ؛ بل بات فى قبضة الصحف والإذاعات ووكالات الدعاية والإعلان يتبع ويردد عنهاما تريد يوماً بيوم ، وزاد ذلك فى وهن داخله وتخلخله واعتياده على عدم الثقة فى فطنته ؛ وعلى خفة وكثرة قراراته وتطلعاته وشدة ميلها إلى التغيير والتبديل بلا انزعاج أو مبالاة .. وصرنا رجالاً ونساء نتكل فى أمورنا كلها خاصة وعامة نتكل على جهات اختصاص نظنها لا تجمع إلاَّ عارفين

متخصصين يكفوننا المعرفة والخبرة بالصواب والأمثل والنافع والمجدى ، ولا نلتفت إلى أنها جهات كسب وربح أولاً وأخيراً تخدم عملاءها وتتصيدهم ليتسع كسبها وربحها .. ومن هنا كنا أكثر إسرافاً وأسرع تبذيراً وأشد ولعاً بمحاكاة الآخرين فى الإنفاق .. ليستوى فى ذلك موسرنا ومعسرنا ، وأهل الحضر وأهل الريف ، وامتلأت المتاجر والملاهى والمصايف والمشاتى ، وغصت وسائل النقل ومكاتب السياحة الداخلية والخارجية ؛ كما غصت الشوارع والطرقات نهاراً وليلاً ..

فاندفاع الجماعات البشرية الشديدة على هذا النحو السائد العام ؛ من الاستهلاك والشبق إلى الاستمتاع العاجل الخالى من الرزانة والتريث ، يمثل تمثيلاً قوياً إندفاع إنسان هذا الزمان نحو خارجه ، واهتمامه الملىء بالطيش والعجلة بالالتذاذ بالأمور الخارجية وبالتفاخر والتباهى بها وليس بمعرفة واقعها وواقع صلاتها بحياته المادية وغير المادية . حال أن هذه المعرفة واستمرار تنميتها وتقويتها ؛ هى جوهر اتصال الآدمى العاقل بخارجه وأمنه واستمرار وجوده على هذه الأرض . وهذه المعرفة هى سبب وصوله إلى ما وصل إليه من التقدم والتطور . فهل تلتفت البشرية إلى هذه المخاطر التى تحدق بها ؟!